

ماذا أفدت من هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة تقف عليها في سياحتنا على هذا الكوكب ونسائل : ماذا أفدنا من الماضي ، وماذا ننتظر من المستقبل ؟ وفي أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط في النفس : سن الستين هي سن الإقالة : يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفي هذا العام ١٩٤٧ ، الذي أتم فيه هذه السن أجدني قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة . ولو أن مي كانت حية لقلت لي على عادتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفاهل ، تحس الضعف فتتخذ القوة . ولكني كنت أجيء بأني ما زلت أحس حاسة الروح بل غلواءه ، وأني أستطع الدنيا كما لو كنت طفلاً . وحسبي هذا برهاناً على أني بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والصبا بل الشباب أيضاً ، فأجد أني من حيث التعلم المدرسي أو الجامعي قد عشت في صحراء لم أتنفع بشيء منها . وإنما كان انتفاعي بما كسبت من تربيتي الذاتية : من جابعة الكتب في اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتي في أوروبا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط في تربيتي ، من اختباراتي الشخصية . وقد تكون الفترة التي عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأسس إلى مجتمع الغد ، ومن تحول الإنتاج من النظام القروي الزراعي إلى النظام المدني الصناعي ، ومن الغيبيات إلى الماديات . والحق أني لا أكاد أعرف عصرًا تجمعت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فان الفترة التي تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هي تاريخ بشري يزيد في مغزاه ونتائجه للمستقبل على القرون التي تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة

في هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهناك من تخلفوا لأنهم لم يطيعوا هذه السرعة أو الهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا . وبعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضي في حين بقينا نحن في الهرولة نحو المستقبل . وليس شك في أننا نعثر ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والترية الحقيقية ، وهي ثمرة العمر لكل إنسان ، هي في النهاية اختباراته طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هي ما يقع لنا بل هي الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً في هذا ؛ فان هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال . وهناك من يستجيبون بالإقدام والمكابدة ، وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذي يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً . ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن نغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقترح عباها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفي كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدي إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصري من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هي تقع في ملتقى القارات الثلاث الكبرى ، كما أنها تقع في طريق الملاحة بين آسيا وأوروبا . ثم هي فوق ذلك تخلو من الجبال التي تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت في أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الإنجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية وضربوا أبناءها الخالصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء في هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الإنجليز لوطننا وبقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود ويطبقون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصرية . وكثير مما عانيته في حياتي من المصادفات السيئة التي عطلت نشاطي وبعثرت قواي يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الإنجليز فيما اتفقوا عليه من

قيود الحرية كانت تضطرنى إلى أن أدرج بدلا من أن أطيّر ، بل كانت تضطرنى أحيانا كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتاب فى مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية وينعون ما فيها من استباحات تؤدى إلى أخطار . ولكنى لم أدخل قط فى معسكرهم إذ لا أطيق العمل فى هذا الجو الخانق للضمير والذهن .

أما مصادفاقى الحسنة التى أخصبت حياتى فكثيرة ، أذكرها بالشكر للأقدار التى هياها لى . وأولها وأكبرها قيمة أنى لم أعرف قط الحاجة المالية ، وكذلك لم أعرف الترف المخدر . فأنا أمتنع بذلك القلق الذى يبعث على الاهتمام اليقظ بالنبه ، ولكنه لا يؤدى إلى الهم المرهق المجد . ثم صادفنى مصادفة حسنة أخرى هى أنى عرفت اللغتين الفرنسية والانجليزية فى سن مبكرة . وقد وصلنا بينى وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتى من المشكلات « القروية » الصغيرة التى تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات عالمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلمة للعالم منبهة لرجال الذهن . فلأنى عشت عمرى فيما بين ١٨٨٧ و ١٩٤٧ فى عصر انقلابى انفجارى رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت فى بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة ، فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب . والعالم يعانى الآلام من هذه الانقلابات التى تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاءهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم فى السعادة القادمة من خلال الخاض الحاضر وآلامه .

وعندما أعرض لحياقى الماضى أجدنى ممتازا امتيازاً واضحاً جداً بصفة طفلية هى الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التى وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات ويزيد بذلك الوجدان . وهذا الاتجاه نفسه ، أى الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما بعده غيرى نكبة قد أعده أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو فى التربية والتنوير والنمو . فقد وقعت بى كوارث وأحزان أهمضت حياتى فترة . ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة ، فاكسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لأحب أن أفقدها . أجل ! لقد تضررت

من الألم حين مات ابن أختي وهو في السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت في نفسى لوعة تمزقنى كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحالت بالزمن إلى حنان رحيم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن في جميع الأحزان الماضية تطفئ كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات رفيقة تؤنس ماضيها . ولذلك أكنز هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا لآلم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التي تذهل وتجمد .

وأظننى أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة . وليس لى فضل فى هذا ، وإنما الفضل للغتين الانجليزية والفرنسية اللتين أناحتا لى الاتصال الدائم بالثقافة الأوروبية العصرية . وهى تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوروبى بحرية لا يعرفها المجتمع المصرى . ومن هنا أصبحت ثقافى ارتيادية أتمسك الجديد فى الآراء وأعرضه على مجتمعتنا كي أوقفه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان ما يبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت فى مدينة أوروبية لكنت أعد عاديا ليس بى أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحي لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر . ولو سئلت ماهو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيبقى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فانى أحب عرابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب « الجمهورية » لأفلاطون و « الانسان والسرمان » لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث التأصيل البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كائنًا كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرع فى دراسة علم جديد أنغير أو أتطور به . وفى هذه الأيام مثلاً أحد أنى مزحوم بدراسات كثيرة ، منها هذه السبائية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته . كما أن اهتمامى بالسيكولوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ . وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجهر ، هى ثقافة عالمية غير وطنية أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القنبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا

الكوكب ، هي حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هي أخطار العلوم المادية . ولذلك فإن الأمة التي تهمل العلوم إنما تهمل حياتها . وقد حاولت في مصر طوال حياتي الماضية أن أعيم التوجيه العلمي بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً ما نبئت الخصومات بيني وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أنتقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمية وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتي من أدوات التطور الذهني في مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصروني . ففي الوقت الذي كنت أولف فيه عن «العقل الباطن» أو «نظرية التطور وأصل الانسان» أو «البلاغة العصرية واللغة العربية» أو «حرية الفكر» ثم «حرية العقل» أو «غاندى والحركة الهندية» أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد المجهل في الوقت الذي كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضي ، مع أن هذه القواعد معروفة ، ومشروحة في مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة في الشرح والايضاح . فان جميع الذين كتبوا مثلاً في ترجمة عمر بن الخطاب لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبي الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبي نواس أو المهدي أو المأمون لم يزدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغاني أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذي يتعطش إلى الثقافة العصرية كي يفهم الحضارة العصرية لا يجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصري .

وهناك أشياء أسف لها كثيراً . منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت اعين المراقبة نحو خمسة عشر عاماً في الحربين الكبيرين ؛ إذ حتم علينا الانجليز ألا ننشر حرفاً في جريدة أو مجلة أو كتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئت لى كتب في الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء . . . وهذا التعطيل قد جمد فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة محدودة . لأن الثقافة اجتماعية لا نهتم بها إلا في مجتمع حى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه في كلتا الحالين ينبهنا . وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذي

كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الخصبية ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشئ آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بايعاز المستعمرين الانجليز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعايته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد منعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوروبا مرة كل عام أو كل بضعة أعوام حيث يتجدد بالايحاء والتغيير الذهني والترفيه النفسى . ولكن التسليطين الذين يعيشون في مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن في جميع المحافل المتمدنة ، يخشون رجلاً مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والإصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى في باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية المصرية . وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء في القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، في مدن أوروبا . وطنى أن هذا القانون سيقى إلى أن أموت . ولن أرى أوروبا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب .

وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى ؟ وهذا السؤال يعيد الى ذهنى وصف ه. ج. ولز للوزير البريطانى الكبير جلدستون بأنه لا يعد متعلماً أو حاصلًا على تربية . وذلك لأنه « كان يجهل الأنثولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرك الصورة الحقيقية للبيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء ، كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث » .

وإذا قست نفسى بهذا المقياس الذى عينه ولز كي يبرهن على جهل جلدستون فاني أجد أنى حاصل على التربية التى قصدتها ؛ لأنى أدرك كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة في أيامنا قد لا يبلغون واحداً في الألف . والبرهان على هذا أن الذين يفهمون مثلاً النظرية النسبية

لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جدا . وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة في بقاع كثيرة . وذلك الذى يصل على الرغم من كل ذلك إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق ، هذا الرجل يحتاج إلى أن يفنى العمر كي يحقق هذه الغاية . وطلب العيش يحول دون ذلك عند ٩٩٩ في الألف من الناس .

والواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلاستون إلى الآن كانوا ولا يزالون في عداد الجهلة . فقد روى ولز مثلاً عن جلاستون أيضاً أن السرجون لبوك رافقه في زيارة لداروين ، فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شئ في وجدانه ، أى إنه لم يكن يدرك القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التى أخرج داروين إنجيلها للعالم . ولكن أليس هذا حال السياسة إلى الآن ؟ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر في ١٩٤٧ أفضل من حال جلاستون في ١٨٧٠ ؟

إن العالم منكوب بتقاليد في التربية والتعليم . وفي المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبلد الذهن بل تحول دون التفكير ، كأن هناك محظورات لا يجوز التفكير فيها . اعتبر مثلاً هذا الفقر المصنوع في العالم ، فإن الانتاج الزراعى ثم الانتاج الصناعى يكفيان ، مع التنظيم ، كي يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موفر الطعام والكساء والسكن ، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة ، متعلم أقصى تعليم ، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه . ولكن السياسة الذين يتولون شؤون هذا العالم لا يزالون في مستوى جلاستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور . والعجب أنك عند ما تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبئت من الجهل أيضاً ، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون .

وقد سبق أن قلت إنى لا أسف كثيراً على أنى لم أخصص لأن الإخصائين ، كما أرى في أخلاقهم ، لا يتوسعون أو يتعمقون في الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى أخصوا فيه . وأعتقد أحياناً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق ، وأنهم يحسون استكفاء ذاتياً لا يحتاجون معه إلى زيادة وأقول في نفسى عندئذ إنى لست كذلك وإنى لو كنت قد أخصيت في علم تجربى لما زهيت . ولكن هذا الفرض ليس سيكولوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية .

ولكنى لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ، وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو . ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمله على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزىد من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكتاب يرهان على كراهة التزىد أو التطور فى الدراسة . وليس هذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقنع بالخيلاء والتبخر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخرين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق . قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألق منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كتاب كرافت أبنج عن « السيكوبائية الجنسية » فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحذلق قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الخيلاء اللفظية ويسموت بها جاهلاً لشؤون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الأهداف للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا وبماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

فى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقبة بأدق وأكبر من المقياس الذى وضعه ه.ج. ولز. وعندئذ لا نجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقبة . فان العلوم خاصة والثقافة عامة مشتتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تقضى فى محاولات عقيمة وإن تكن مخلصه للتعلم . حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد يبعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزد حتى يبلغ المائة مثلاً ، فتجنى فى العقود الأخيرة ما جهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن قبل ذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتنوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل لتبليد الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتباسات

واستغراضات للجهل الفاشى ، هذا الجهل الذى يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزاعم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء وحقائق . وقد سبق أن عانى جيته مثل هذه الحال حين قال : « ليس هناك أفضح من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى ؟ بأنى مازلت « حائراً » فى سياق التربية . وأنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فى أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لأفجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله إلى صديق فأرجى فتحه إلى الغد كي أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم . وأسراً أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فإن القيم الاجتماعية ، بالحاح العادات والتقاليد ، نغمنا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأخرى أن يسمى « محاسبة » لاقتناء أتومبيل أو عربة أو لقب أو نحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين ننقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الإمبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى الحجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها ، أو ، حين أكتب ، البحث عن بشائر المستقبل والتشبث بها وشرحها فى مقال أو كتاب .

وإذا سألت القارىء : ماذا تستنتج من اختباراتك ، وما تكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجدانى بالعقل العام على هذا الكوكب ؟

فأنى أجيب : بأن الحاضر يومى إلى المستقبل إيماءة واضحة تراها بالعين وأحياناً نسمعها صاحبة بالأذن ، هى الاشتراكية التى سوف تعم الدنيا كلها . وليس هذا لأن الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار ، بل لأن الانتاج

الصناعى سيحتم ذلك . كما سيحتم توافر النقل وضرورة التجارة ، على أبعاد كوكبية، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة . وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الانسانية ؛ لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء ، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة . وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل . ويتضح هذا من المقارنة فى مصر بين المرأة فى الريف والمرأة فى المدينة فان الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الحبن وتحيط ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التى لا تعرفها المرأة فى المدينة . ثم المقارنة بين المرأة فى القاهرة والمرأة فى نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التى ترهق ربات البيوت الآن وتحول بينهما وبين العمل فى الخارج أو بين تربية أنفسهن . ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التى حلم بها إيسن فى شخصية « نورا » هذه الأنثى التى أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية .

وأستطيع أن أستنتج من حياى الماضيه أن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيراً من أم آسيا وأوروبا ، بعد الاستعمار ، هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا . وهى تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب ، وتعترض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تهض إلا على العلم . وهو نار كاوية تحرق جميع هذه الرواسب وتبددها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هى الحضارة الصناعية ، هى الحضارة التى لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم المستحيل كما يتوهم بعضنا ؛ فان الكيمياء الصناعية تصنع الآن مركبات كيميائية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم الحى نباتاً كان أو حيواناً . فاذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن تصنع مادة البروتين فان الزراعة تعود غناء لا ضرورة له نباتاً . وعندئذ يحال العالم إلى حقائق وغابات تعنى بها الطبيعة وحدها . وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لا يزال بعيداً فيجب أن نذكر الطاقة الذرية . لأن أى إنسان منا لو أنه ، قبل خمس سنوات ، سئل أيهما أقرب

إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير أو صنع البروتين كيميائياً ،
 لظن هذا الثاني أيسر بكثير من الأول .
 وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى في مصر ، في تطبيق
 نظرية التطور بالانتخاب التناسلي ، أى اليوجينية ، وفي العالم نحو أربعين
 دولة متمدنة تمنع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا . والأمة التي تعارض
 في مثل هذا الإصلاح ستتخلف في ميدان التطور البيولوجي أى الرق البشري
 الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هي التخلص من المذهب
 الانفصالي ، مذهب ديكرت ، بين الروح والجسم ، أو بين الحياة والمادة ،
 أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالي الذى يقول بأن القوة هي المادة
 المتدفقة والمادة هي القوة المتجمدة . وفي هذا القول وثبة ثقافية واسعة
 إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر في الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف
 العظيم سبينوزا أن نبه إلى ذلك في لغة فلسفية . ونحن نقتنع هذه الأيام بصحة
 تفكيره عن طريق العلم التجريبي ، ونصل إلى وحدة وجودية في الطبيعة ثم
 نندرج إلى ما يلائمها في المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتمامات بل الهموم
 الوطنية التي حجت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت أنشدهما في حب وولاء
 بشريين ، هذه الهموم تذوب وتتبدد . أجل ! إنى أحب أن أعترف . فانى
 ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين الانجليز إلا وأنا في ألم وارتعاش وآسف أكثر
 مما أحس من غيظ وحنق وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح ،
 الرجعيين المستغرضين والجهلاء الشيطيين من المصريين . فانى أخجل حين
 أقول إنى أحب جميع هؤلاء الانجليز المستعمرين والمصريين المستبدين . وفي نفسى
 رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياي وأن ينسلخوا من الاستعمار والاستبداد ،
 ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة : للحرية والإخاء والمساواة . وجميعها مستطاع
 لو أنهم كفوا عن « الجهل الشيط » الذى يمارسونه .

وقد احترفت الثقافة وقضيت عمري أقرأ وأكتب . وزادتني هذه الحرفة ،
 وجدانا بالدنيا ، كأنى أحس أكثر وأرى أبعد ، حتى لقد صغرت همومي الشخصية
 إلى جنب اهتماماتي العامة . ودراستي للأدب والفلسفة قد أوهجت خيالى وأحدثت

ذكائي . ثم انعكست هذه الدراسة إلى حياتي فأصبحت قيمي وأوزاني الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية . ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرءوا الأدب والفلسفة ، وأن يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر . لأنهم وهم في هذا النشاط يتخيّلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى المعاني وأنصح الكلمات . وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة فيرتفعون عن التبذل ويحولون الحياة إلى فن جميل .

ولو أني مت ثم بعثت وخيرت في الحرفة التي أحترف لما اخترت خيراً من أن أقرأ وأكتب . ولكني مع ذلك سوف أموت وفي نفسي شيء من الطاقة الذرية . لأنه يجب على كل إنسان في عصرنا أن يستوفي ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشري الجديد للتسلط على المستقبل . ولم أجد الفرصة لهذه الثقافة كما كنت أشتهي وإن كان حظي منها قد يحسّني عليه غيري . أجل ! لقد تركت الطاقة الذرية في نفسي مركب نقص أعانيه كل يوم .

سلام موسى